ومضات روحية عن القيمة الزهدية للزهد عند الحسن البصري

د. هاجر الطيب الطاهر عمران
كلية الآداب - جامعة الزاوية

مقدمة

كانت حياة التابعين وأقوالهم منبعاً استقى منه الزهاد،لأنَّ حياتهم وأقوالهم حافلة بالشيء الكثير من الزهد والورع والتقشُّف والإقبال على الله تعالى، ولا يستطيع باحث منصف في تاريخ التصوف الإسلامي أنْ يغفل على ما انطوت عليه أقوالهم من المنازع الروحية والأذواق القلبية.

وقد حرَّك فيهم الرسول ﷺ عقيدة التوحيد الصافي النقي، كما دعاهم إلى هجران الحياة الدنيوية المضطربة الآثمة، وذكَّرهُم بالحياة الأخروية، وخلود الروح ونشأة الجسد النشأة الثانية.

كان أساس كل هذه المبادئ الإسلامية الخالصة هو الترهيب والترغيب، والخوف من النار والطمع في الجنة، والعقاب والثواب. فالحسن البصري نموذجاً يقابلنا بعد الصحابة في عهد التابعين، فكانت حياته حياة الخوف والرجاء، حياة التهجُّد والبكاء، فهو كان يلتمس طريقاً إلى الله في زهده، مستعيناً بالمثل الأعلى الذي وجده عند الصحابة جميعاً.

يهدف هذا البحث إلى إظهار القيمة الزهدية للزهد عند الحسن البصري، كما يهدف إلى الإجابة عن السؤال التالي: ما الأسس الروحية التي قام عليها الزهد عند الحسن البصري؟

ولهذا انتهجت منهجاً وصفياً تحليلياً، وقمت بتقسيم البحث إلى الآتي:

أولاً- حياة الحسن البصري وبيئته.

أ- اسمه وحياته.

هو الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري، ويقال مولى أبى اليسر كعب بن عمرو السلمي. كان أبوه مولى جميل بن قطبة، وهو من سبى ميسان، سكن المدينة وأعتق وتزوج بها في خلافة عمر بن الخطاب، فولد له بها الحسن -رحمه الله- لسنتين بقيتا من خلافة عمر. وأمه خيره مولاه لأم سلمه أم المؤمنين كانت تخدمها، وربما أرسلتها في

الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن، وهو رضيع فتشاغله أم سلمه بتذييها، فيدران عليه فيرضع منهما، فكانوا يرون أنَّ الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى أم سلمه زوجة رسول اللهﷺ، ثم كانت تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له[1]، وفى رواية أخرى يعتقد الدكتور الشيبى، في بيان علمه الوافر أنَّه من برَكة شربة ماء من جرّة كانت للنبي ﷺ في بيت أم سلمه[2].

يتضح والجميل أنْ يذكر متى ما كان زمن الخير عمة البركة وأي بركة! بركة صحابة رسول الله وأنفاسهم الطيبة.

ب- شيوخه.

تتلمذ على أيدي كبار أصحاب النبي: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، لكنّ وَلَعَه بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كان هو الأشدّ، فقد مَلَك عليه نفسه بصلابته في الدين، وإحسانه في العبادة، وزهده في حطام الدنيا، فضلًا عن بلاغته وفصاحته وحكمته وخطابته وسُموّ أخلاقه، وكأنَّه اتخذ عليًّا مثلًا أعلى له، فظهرت صفات علي في شخصية الحسن! كيف لا يكون ذلك والحسن البصري ولد بالمدينة، فضلاً على أنَّ نشأة الحسن كانت بين كبار الصحابة -رضوان الله عليهم- ممَّا دفعته هذه النشأة إلى التعلم منهم؛ لأنَّه عاش بين كبارهم، كطلحة بن عبيد الله، عمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، ومعقل بن يسار[3].

إنْ كان هذا الزاهد الذي ولد بالمدينة (سنة 22ه/642م)، والمتوفى (سنة 110ه/728م)، من أبرر ممثلي الزهد الطبيعي الإسلامي، وعندما نقول الطبيعي نعنى أنَّه ليس بالزهد الشاطح ولا المتطرِّف، بل نهجُ زهده الكتاب والسنة لأنَّه تربَّى بالمدينة، ولم يشوب زهده شائبة فارسية أو نوازع غير إسلامية.

ج- علمه.

أخذ العلم عن خلق كثير من الصحابة والتابعين، وأدرك كبار الصحابة وروى عنهم، أمثال الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وعمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة، وأبي بكرة، وسمرة بن جندب،

ومعقل بن يسار، وأنس بن مالك – رضوان الله عليهم أجمعين– حتى صار عالماً في الحديث والفقه والتفسير واللغة.

رحل إلى كابل، ثم خراسان حيث كان كاتبًا للربيع بن زياد في عهد معاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنه– ثم سكن البصرة ونُسب إليها. ويروى أنَّ النساك "يأتون الحسن ويسمعون كلامه، ويذعنون له بالفقه في هذه المعاني خاصة، وكان عمرو بن عبيد، وعبد الواحد بن زيد من الملازمين له، وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن، فإنْ سأله إنسان غيرها تبرم له وقال: إنَّما خلونا مع إخواننا نتذاكر، فأمَّا حلقته في المسجد فكان يمر فيها الحديث والفقه، وعلم القرآن واللغة وسائرالعلوم.."[4].

ويروى كذلك عن بكر بن عبد الله المزني قال: "من سرَّه أنْ ينظر إلى أفقه من رأينا فلينظر إلى الحسن"، وقال قتادة: "كان الحسن من أعلم الناس بالحلال والحرام"[5]. ولو تساءلنا عن سبب تبحُره في كل هذه العلوم، فهذا راجع لأسباب منها:

1– نشأته في بيت أم المؤمنين أم سلمة – رضي الله عنها– فقد رضع من ثديها، كما رضع منها علمـــاً وفقهـــاً.

2– قربه من بيوت أمهات المؤمنين، فكان ذلك داعيـــاً لأنْ يتعلم منهنَّ.

3 – لزومه حلقة ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ فقد أخذ عنه الفقه والحديث والتفسير والقراءات واللغة.

4 ولوعه بأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ــرضي الله عنه ــ فقد راعه فيه صلابته في الدين، وإحسانه في العبادة، وزهده في الدنيا، وقوته في الفصاحة والبيان[6].

ثانياً– لمحة عن أهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عاش فيها الحسن البصري.

نستطيع أنْ نتساءل هنا عن أهم الظروف التي ولدت هذا الاتجاه الروحي الزهدي عند الحسن البصري.

1– يرى الدكتور الشيبى أنَّ البصرة كانت ميناء تجتمع فيه كل الأجناس المختلفة، وتختلط فيها كل الثقافات المتباينة، ويظهر فيها الجديد من الأفكار والثقافات والميول المتعدِّدة، فهي كانت تسمَّى أرض الهند؛ لاتصالها على الأشكال المختلفة من

الأجناس، وهذا ولد انفتاح على العالم الخارجي، وما حمله من تطبيق لتقاليد من لم يألفها المجتمع الإسلامي من ذي قبل[7].

2- الرخاء الاقتصادي للبصرة أدَّى إلى ميل الناس إلى التوفيق بين الأمور الاقتصادية، وبين حياتهم الاجتماعية، فأدَّى إلى حالة من التشبُّع المادي والانغماس في ملاذ الدنيا، فأدَّى بهم هذا التشبُّع إلى البعد عن الأسس المتينة الكتاب والسنة، من هنا ظهر في البصرة نفر من الشباب الداعر في صورة عصابات وجماعات تنتهك الحرمات وتبحث عنها في أية صورة كانت، وأدَّى هذا بطبعة إلى انتشار التفسُّخ الأخلاقي.

3- كان من الطبيعي في مثل بيئة البصرة التي سادها التفسُّخ الأخلاقي أنْ يظهر وعاظ ومذكرون، يذكِّرون الناس إلى ما هم فيه من بعد عن المثل العليا الإسلامية، تعرضهم لسخط الله، ومن هنا ظهر في البصرة وعاظ وزهَّاد، عرفوا بشدة التأثير وقوة التركيز، كعبد الواحد بن زيد، والشيخ الحسن البصري[8].

الزهد ومن وجهة نظري هدفه دائماً أخلاقي، فهذه الظروف وغيرها ولدت روح معارضة للاضطراب في القيم الخلقية عندهم، فيكون هدف الزهد هنا تحليه بالأخلاق الحميدة والعودة إليها، وتخلِّيه عن أخلاق ذميمة وهجرانها.

الحب والخوف كانا متلازمين في البصرة، فالحب اشتهرت به رابعة، والخوف اشتهر به الزاهد البصري الحسن بن يسار البصري؛ لأنَّه عبَّر عن جوهر زهد البصرة.

4- وفى مجتمع انتشر فيه التفسُّخ الأخلاقي والتحلُّل من المثل العليا، أدى ذلك إلى خروج جماعة معارضة للروح المتحللة، نتيجة لهذا الاضطراب في القيم الخلقية عندهم؛ أطلقوا عليهم لفظ القَاص أو القُصّاص كالحسن البصري، وكانوا بحرا في كل علم، وبخاصة الأخبار والسير والحكايات، أي على درجة من القناعة والقوة[9].

ممَّا سبق يتضح جلياً أنَّ الحسن البصري وصف بالحساسية الشديدة تجاه الظروف التي كانت البصرة تمر بها، فوصف بالخوف الشديد والحزن، حتى عبَّر عنه بقوله: "طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح". وقال: "لا يؤمن عبدٌ بهذا القران إلا حَزَنَ وذَبُل، وإلا ذاب وإلا تَعِب"[10].

ثالثًا- ومضات روحية عن القيمة الزهدية للزهد عند الحسن البصري.

للحديث عن الزهد عند الحسن البصري العابد الناسك والعالم والفقيه الذي ينظر إليه كافة المسلمين نظرة تقدير وإعجاب واحترام.

تساؤل ما قوام الحياة الروحية عند الحسن البصري؟ وبأي شيء اتصف زهده؟

قوام الحياة الروحية عنده هو الزهد في الدنيا، والإعراض عن جاهها، والإقبال على الله، والتوكُّل عليه والخوف منه، ويمثِّل الحسن البصري دون أدنى شك نوعاً خاصاً من الحياة الروحية، هو الزهد المتصف بالخوف الدائم. فقد قال فيه صاحب الحلية: "حليف الخوف والحزن، أليف الهم والشجن، عديم النوم والوسن، أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن، الفقيه الزاهد العابد كان لفضول الدنيا وزينتها نابذاً، ولشهوة النفس ونخوتها واقذاً"[11].

يصور الأصفهاني الحسن البصري بصورة لا تخلو من المغالاة والتشدد، وهذه الصورة لا تتفق مع ما كان عليه الحسن البصري من قوة الإيمان، وحب لله ورسوله الكريم ﷺ في كل أموره.

فضلاً على أنَّه نشأ بين الصحابة وتعلَّم على أيديهم الدين، وفق منهج الكتاب والسنة والجماعة، وما كان يقوم به من وعظ وإرشاد استلهم قواعده من كتاب الله وسنة نبيه، وربما كان وصف الأصفهاني دقيق، وربما بالغ. فدقيق لماذا؟ لأنَّ هذا راجع للتفسُّخ الأخلاقي، والانحلال الخلقي الذي عاصره، وهذا ينعكس سلباً على روح الحسن، وهذا أمر طبيعي لواعظ وشيخ مثله.

وبالغ الأصفهاني في وصفه للحسن البصري في كتابه (حلية الأولياء) عن كثرة الحزن والهم، وأنَّ هذا أمر ممدوح، وأنَّه من مناقبه ﷺ لكان في هذا سوء أدب مع الرسول ﷺ لأنَّه كان مبتسماً بشوشاً في وجه الآخرين، دائماً يدل هذا ما رواه أحد الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- بقوله: "ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ كان أجود أبش"[12].

وممَّا يؤكد رسوخ قدم الشيخ الحسن البصري في الزهد القائم على الوعظ الخلقي أنَّ الإمام على ﷺ دخل جامع البصرة، وجعل يخرج القُصَاصَ[*] ويقول: "القِصَصُ بدعه، فانتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة، فأستمع إليه فأعجبه

كلامه، فقال يا فتى، أسالك عن شيئين فإنْ خرجت منها تركتك تتكلم مع الناس، وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك. فقال: سل يا أمير المؤمنين، فقال: أخبرني ما صلاح الدين؟ وما فساده؟ فقال: "صلاحه الورع وفساده الطمع قال صدقت. تكلَّم فمثلك يصح أنْ يتكلَّم على الناس"[13].

وبعد أنْ أباح علي بن أبي طالب الوعظ والكلام للحسن البصري، نراه يحاول–الحسن البصري– التميز بين من لبس الصوف كعلامة على الزهد والورع، أو أنْ يكون مدعاة للكبرياء والخيلاء، حينئذ يحدِّد لنا ماهية الزهد الحقيقي فيقول: "من لبس الصوف تواضعاً لله –عزَّ وجلَّ– جعل الله له نوراً في بصره وقلبه، ومن لبسه للتكبُّر والخيلاء كور في جهنم مع المردة". وقيل له مرة: "الفقهاء يقولون كذا وكذا. فقال: وهل رأيتم فقيهاً بأعينكم؟ إنَّما الفقيه الزاهد في الدنيا، البصير بذنبه، المداوم على عبادة ربه عزَّ وجلَّ"[14].

نستنتج ممَّا سبق أنَّ الحسن البصري قد لخَّص بأقواله تلك مراحل الزهد الحقيقي، والقيمة الروحية الزهدية، فهو يبدأ بالتواضع وعدم الرياء إلى الزهد في الدنيا ومداومة العبادة. حتى الفقيه حدَّد له وصفه، فأعطى المعنى العميق والروحي لكلمة (فقيه) في فكرنا الإسلامي. فليس الفقيه في نظره كما يعتقد الكثيرون من المتخصصين في أحكام العملية والتشريعية الإسلامية، بل كما يتصوره – إمام التابعين– الشيخ الحسن البصري، الذي يعمِّق الشريعة بالحقيقة، ولابد أنْ يؤكد ويربط العلم بالعبادة الدائمة، والزهد في الدنيا، فلو أردنا أنْ نحدِّد وصفاً للفقيه فهو الزاهد العابد.

من الواضح فنحن مع السراج الطوسي في تلخيص منهج الحسن البصري في الزهد في الآتي: "إنَّ أكثر ما ينفع الناس من تعلم الآداب عاجلاً وأوصلها آجلاً، هو التفقُّه في الدين، فإنَّه يصرف إليه قلوب المسلمين والزهَّاد في الدنيا، فإنَّه يقرِّب المرء من ربه"[15].

يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ الزهد عند الحسن البصري كان زهداً كله فضائل أخلاقية، إذ كان قائماً على الوعظ الخلقي غايته نفع النَّاس في الدنيا والآخرة، ووسيلته كانت الفقه والوعظ الأخلاقي.

فالحسن البصري كان يلتمس طريقاً إلى الله مستعيناً بالمثل الأعلى الذي وجده عند الصحابة جميعاﷺ فكان وعظه وما قام

عليه زهده من صلاح وتقوى، يهدف إلى خير الناس في الدنيا، وحثهم عن رؤية جمال الحياة الباقية للزاهد الحق التي في علم الله، وهي خير وأبقى.

تلك هي القيمة الأخلاقية التي كان ينشدها من زهده وورعه. الذي كان قائم على الكتاب والسنة، لذا نجده حزيناً خائفاً، كثير البكاء فيقول: "لقد أدركت أقواماً ما إنا عندهم إلا لص"[16].

وكأنَّ لسان حال الحسن البصري يقول أصبح الوعظ والنصح في عصره صاحبه مذموماً وغير مرغوب فيه، وهذا حال عصرنا وما نحن فيه.

وممَّا لاشك فيه، فعن سبب خوف الحسن البصري وبكاؤه وحزنه ما ذكره القرآن من عظيم مشاهد يوم القيامة، ومن قصر الحياة الفانية، وتشوُّقه إلى الحياة الآخرة الأبدية إلى الخلود السرمدي في حضرة الله، وفي جناته ونعيمه فنجده يصف الدار الدنيا بأنَّها قاتلة للنفوس جميعاً، فلا تبقي أحداً ولا تذر. فعجباً أنْ يتعلَّق بها المتعلقون، ويفرح بها الفارِحون. وليست هي إلا سراباً لقوله تعالى:﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [سورة الأنبياء، الآيتان:34 –35]﴿**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ(40)**﴾ [سورة الأنبياء،الآية:39–40] ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2)**﴾ سورة ،الحج :الآية2]

ما نستنتجه من الحياة الروحية عند الحسن البصري، أنَّ أهم خطوة في طريق الزهد هو تصفية النفس بالمجاهدة العملية من صلاة وصوم، وذكر وغيرها كثير، وهو الذي يسبِّب الدمعة الغاسلة للخطايا، ولن يبلغ المرء أيَّ مقام كالزهد مثلاً إلاّ بتلك الرياضات؛ لأنَّ لها الدور الكبير والكلي في تهذيب النفس، ومن بعدها تأتي الأحوال كالخوف والشوق.

وعلى هذا النحو نجده وضع لتلامذته ومريديه أصول العبادة ألحقه القائمة على محاسبة النفس فيقول: "إنَّ المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله –عزَّ وجلَّ– وإنَّما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم

حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنَّما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة"[17].

يتبين ممَّا سبق أنَّ منهج الحياة الروحية عند الحسن البصري يرتكز على أسس منها:

1- أنَّ القرآن هو الحافظ للإنسان من التهلكة، وهو سلاح المؤمن ضد كل هلاك. وهذا ما يؤكده الحسن البصري لتلامذته نقلاً عن ابن الجوزي "في أنَّ المؤمن في وثاق القرآن يحول بينه وبين التهلكة، فالمؤمن أسير في الدنيا، ولكنه يسعى إلى فكاك رقبته"[18].

2- الزهد في الدنيا والخوف من الله ومعرفته أساس تزكية النفس وصلاح القلب، وهذه فضيلة أخلاقية ذات بعد أخلاقي، ألا وهو الصدق والطهر الداخلي[19].

فزهد الحسن متأتياً بعد تفقُّه وتبصُّر وتفكُّر سديد في حقائق الأمور، وقد روى الذهبي عن عوف أنَّه قال: "ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنَّة من الحسن"[20].

3- ربط الإمام الحسن البصري العبادة لله تعالي بالفقه والزهد، أي ربط المسبب بالسبب فقال: "أنا الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه"[21].

4- رأى أنَّ التقصير في العمل مردَّه إلى المعاصي والخطايا، فقد روي عن مبارك بن فضالة أنَّه قال: سمعت الحسن وقال له شاب: أعياني قيام الليل، فقال: "قيدتك خطاياك"[22].

5- الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة إذ كان يقول: "من انقطع إلى الله تعالى في مسجد للذكر والصلاة، أقام الله له الدنيا خادمة"[23].

الواضح من خلال تتبع منهج الحسن البصري في الزهد نجده تطبيقاً عملياً لما في الإسلام وتجسيد للعبادة. وذاك هو الزهد الذي قوامه كتاب الله، وسنة نبيه – صلوات الله عليه وسلامه– قناعة ورضا، توبة وتواضع، فإنْ كان الزهد خلق ومنهج فما ظنك بخلق تولَّدت عليه فضائل وقيم أخلاقية شتَّى، كالتواضع والرحمة واللين، والشفقة، وكلها خير وخير لمن كان آخذاً بها.

رابعاً- لمحة عن معالم الحياة الروحية عند أتباع الحسن البصري مالك بن دينار أنموذجاً:

بعد أنْ اتضح الزهد منهجاً وفضيلة أخلاقية عند الإمام الشيخ الحسن البصري، أخذ تلامذته ومريدوه يعمّقون هذا العلم الجديد. وكانت تعاليم الشيخ الحسن هي الأساس الأول عندهم، وهي الصورة الأولى على طريق الزهد، هذه التعاليم هي الحزن على أوصاب الدنيا وأوضارها وقصرها. والبكاء على الذنوب والمعاصي والخطايا التي غرق بها الناس في مجتمع البصرة.

لم يقف تلامذة الحسن البصري مكتوفي الأيدي، بل أخذوا على عاتقهم مهمة الوعظ والإرشاد، متمسكين بأهم جانب في الزهد، وهو الجانب الأخلاقي، والدفاع عن الدين ومبادئه. فلم يعزلوا أنفسهم عن المجتمع كما حال النصارى، بل خرجوا ينذرون الناس، ويشاركون في إرساء قواعد سليمة للمجتمع الإسلامي، لا يهابون بطش سلطان وجمعوا الأموال لا من أجل شهواتهم، بل من أجل خدمة الإسلام والمسلمين ومن أبرز تلامذته وأتباعه:

أ- مالك بن دينار:

لو تساءلنا عن الشيخ مالك بن دينار، لقلنا إنَّ المؤرخين وأصحاب الطبقات لم يتناولوا تاريخه الشخصي إلا شذرات منه ما نقل منها إلا سرد لمأثوراته ومناقبه وإشارته التي تصور منهجه الروحي.

ففي ترجمة صاحب وفيات الأعيان "أنَّه مولى بني أسامة بن لؤى القرشي، توفى سنة 131ه، وكان عالماً زاهداً كثير الورع، قنوعاً، لا يأكل إلا من كسبه"[24]. وقد روي أنَّ الأصفهاني في حلية الأولياء قال أنَّه "أدرك رضوان الله عليه من الصحابة أنس بن مالك"[25].

هكذا نجد أنَّ مالك بن دينار قد عاش في القرنين الأولين للإسلام، ولا يزال عبير النبوة متضوعاً في الإرجاء؛ لقربه من عهد النبوة. فضلاً على أنَّه تتلمذ على يد الحسن البصري، فما قوام منهجه الزهدي؟ وما القاعدة التي انطلق منها؟.

لمَّا كان حب الدنيا ومفاتنها يطفئ نورانية الروح وصفاؤها، فهو كالسم القاتل لصفاء النفس وتساميها للأفضل، لذا نجد الزهد لدى مالك بن دينار هو من أعاد للنفس اتزانها، وكيف لا يكون ذلك وهو من كان شيخه الحسن البصري أليف

الخوف والحزن، ونابذاً كل شهوة، أيّ كان زهده وعظي، قوامه وكما ذكرنا كتاب الله وسنة نبيهﷺ. فماذا عن زهد مالك بن دينار؟ وما أساس زهده وما الطابع الذي اتسم به؟

1- زهد مالك بن دينار:

كان مالك بن دينار لا يخشى أمراء البصرة، فكان يدخل عليهم ويعظهم ويخوّفهم من عذاب النار، ويفعل الشيء نفسه مع أصحاب الخراج، ويتشدَّد عليهم كي يمنع أذاهم عن الناس. وكان أساسه في هذا الشيء، وهذا ما اختص به كل الزهَّاد والعبَّاد من المسلمين، هو القران الكريم الذي يحملهم على ذكر الله، وعدم التكالب على الدنيا.

فها هو يخاطب المسلمين قائلاً: "يا حملة القران، ماذا زرع القرآن في قلوبكم، فأنَّ القران ربيع المؤمن، كما أنَّ الغيث ربيع الأرض، وأنَّ الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحشيش، فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أنْ تهتز وتحسن. فيا حملة القرآن ماذا زرع الله في قلوبكم"[26].

ولمَّا كان اهتمام مالك بن دينار مرتبطاً بالقران، فأنَّه كان يكثر دائماً من الذكر باعتباره وسيلة ناجحة في الوعظ والإرشاد والتمسُّك بالمبادئ الأخلاقية والفضائل المثلى، فحبه للقرآن جعله يؤكد للعلماء والعباد، وهذا ما رواه صاحب كتاب الحلية: "بأنَّ حب الدنيا يخرج من قلب العالم حلاوة ذكر الله"[27].

الواضح أنَّ مالك بن دينار كان زهده في الدنيا مرتبطاً بالخوف من النار، فولَّد الخوف حزناً كان متأتياً من قراءته لكتاب الله تعالى، فكان زهده في الدنيا أساسه القران وهدفه، وعظ الناس شأنَّه في ذلك شأنْ شيخه الحسن البصري، فجمع التلميذ والشيخ بين حالي الخوف والرجاء نظراً لظروف بيئته، وما كان فيها من تفسُّخ وانحلال أخلاقي.

فكان زهدهم الوعظي الأخلاقي، وما يحمله من قيم نبيلة كالتواضع الذي هو خير، والرضا الذي هو حق، فإذا أمعنا النظر لوجدنا كل فضيلة في الزهد تحمل قيم كالخير، والحق، والجمال، وحاولوا أنْ يهدوا بهذه الفضائل النّاس لمعالم الطريق المستقيم.

يتضح ممَّا سبق أنَّ مالكاً وشيخه أكَّدوا أنَّ القلب إذا تعلَّق بحب الدنيا لم تنجح فيه موعظة، بل همَّه أكل ونوم وشهوة، وعلى

الرغم من أنَّها أشياء فطريه للإنسان، إلا أنَّ التوسُّط فيها لابد منه؛ لكي لا يطغى عالم المادة ومهلكاتها على عالم الروح الأنقى، وهذا بيت القصيد وما أحوجنا إلى عالم الروح بقيمة وفضائله.

إنَّ مالك بن دينار كان لا يفتر عن ذكر الله، وكان يطرب لسماع القران الكريم فيقول لأصحابه: "إنَّ الصديقين إذا قرئ القران طَربت قلوبهم إلى الآخرة"[28].

يتبين لنا أنَّ متى ما قرئ القرآن، وأمعن المؤمن في آياته عرف الله حق المعرفة، وعرف أنَّ الدنيا هي طريق إلى جنّة الخلد خالداً فيها، أو نار جهنم يحرق فيها.**﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ سورة الكهف،الآيات: 103ــ107. اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾** [سورة الحج، الآيتان1، 2].

هكذا يوطِّد مالك بن دينار طريق الزُهاد العُبَّاد بمعرفة الله فيقول: "خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب ما فيها. قالوا ما هو يا أبا يحي؟ قال معرفة الله تعالى"[29]. ويستمر طابع الحزن والخوف من النار في التأثير النفسي السيكولوجي على مالك بن دينار. فالعزلة التي هي الخروج عن الدنيا برمتها وما حوته، كانت وسيلة من الوسائل التي تدفع بالمسلم إلى التفكير في القرآن، وتدبُّر آياته ومعانية بشيء أدق وأوفى.

وبذلك يكون المسلم أكثر قرباً من الله، وكلمَّا أخاف النفس وأحزنها بالتدبُّر في مرامي آياته استقامة، ومتى ما استقامت عرفت ربها سبحانه. لقوله تعالى:**﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾** [سورة النجم،الآيتان: 43-**44] ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾** [سورة النجم، الآيات-57 ــ 62]

يتضح ممَّا سبق أنَّ منهج الحسن البصري في الزهد كان أصدق تطبيق عملي؛ لما في الإسلام، وأعده على حد

قول الدكتور إبراهيم بسيونى واضع أصول الزهد[30].

تلك هي الصفوة –رضوان الله عليهم– وتلك هي غايتهم التوجُّه لله والتحرُّر من هوى النفس والشيطان بقوله: "يستعان على دفع وسوسة إبليس بالذكر والقراءة ومجاهدة النفس: بالصوم والصلاة والمجاهدة والرياضة"[31].

ولابد للنفس من رياضتها ومجاهدتها كي تدرك ما للزهد من فضائل وقيم، فكله –الزهد– جمالية تفرَّد بها، طالما أساسه الكتاب والسنة.

وإذا صح القلب وطهرت النفس كان الشوق والحنين إلى رسول اللهﷺ، لذا كان الإمام الحسن البصري إذا ذكر حديث حنين الخشبة التي كان سيدنا رسول الله ﷺ عليه يخطب إلى جنبها: "يقول الخشبة تحن إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلَّم– فأنتم أحق أنْ تشتاقوا إلى لقائه"(32).

تلك هي ومضات روحية عن الشيخ الحسن البصري "ذاك الذي كلامه كلام الأنبياء"[33].

ونختم فنقول الزهد عند هؤلاء هم أهلُه، فقد لا يقبل المرء بالزهد في الدنيا، وهو يعيش فيها، ولكن الحسن وإتباعه زهاد وهم فيها لعلمهم بأنَّها لا تساوي جناح بعوضه عند بارئها! فكيف لا يزهدؤها؟ وعند الله كذلك، فكانوا معلِّمي الفضيلة والقادة ، فهربوا من الدنيا وجعلوا من الزهد وبطريق معتدل خير هادى للخير والتواضع والرحمة، فكيف ما أداروا هذا المقام أعجزهم في جماليته؟.

الخاتمة:

نخلص ممَّا سبق إلى الآتي:

1– كانت الحياة الروحية في مراحلها الأولى قائمة على العمل فقط والسلوك العملي وحسب، حيث كانت هذه الحياة زهداً وتقشُّفاً ومجاهدة، وتطبيقاً عملياً لنصوص الشَريعة السمحة. بمعنى أنَّ سلوك المسلم كان قائماً على الزهد والتقشُّف والتنسُّك من خوف وحزن وإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله والتوكل عليه.

2– من أجل الوصول إلى قلب تقي نقى مملوء بالورع والخوف منه سبحانه وتعالى كذلك الحصول على نفس طاهرة نقية تتمسَّك بالمعالي، وتترفَّع عن الدنايا لتزداد صلتها بالله، ويزاد حبها له من الواضح أنَّ منهج الحسن البصري مع تلاميذه استمر بالطابع نفسه زُهداً عملياً ومجاهدة عملية

مصدرها كتاب الله. فهو خير هادئ ومرشد. راجع هذا وكما ذكرنا إلى عوامل كانت سائدة آنذاك هي أشبة بأمراض قتلت المجتمع، وخير علاج لها كتاب الله وسنة رسوله، وما أحوجنا إلى علاج نستأصل به كل الأورام الخبيثة.

3- أنَّ الزهد عند الحسن البصري كان زهداً قائماً على الوعظ الخلقي، غايته نفع الناس في الدنيا والآخرة، ووسيلته كانت الفقه والوعظ الأخلاقي، فالحسن البصري كان يلتمس طريقاً إلى الله؛ مستعيناً بالمثل الأعلى الذي وجده عند الصحابة جميعاً.

تلك هي القيمة الأخلاقية التي كان ينشدها من زهده وورعه. الذي كان قائماً على الكتاب والسنة لذا نجده حزيناً خائفاً كثير البكاء.

4- أنَّ زهدهم وما حمله من تقوى و تنسُّك وتقشُّف كان أمراً عملياً فيه اتزان وموازنة بين أمور الدنيا والآخرة، ممَّا دفع هؤلاء الصفوة على اتخاذ منهج الترغيب والترهيب في قالب وعظي، ولم يتحيَّزوا لمنهج الترهيب، مهملين منهج الترغيب، وإنَّما التزام الإسلام بمنهج الاتزان والاعتدال بين الترغيب والترهيب حيث بشَّر الصالحين بالجنة، وأنذر العُصاة بالنار[34].

5- كان من أصول الزهد عندهم – الحسن البصري وأتباعه- ترفع الإنسان فوق شهوات نفسه، وهذا معناه أنْ يتحرَّر تماماً من كل ما يعوق حريته. ولكن الزهد مع هذا لا يعني الانصراف التام عن الدنيا، وإنَّما يعنى الاعتدال، أو العيش بوسطية امتثالاً لقوله تعالى:﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾.[سورة القصص،الآية:77].

وهذا ما كان عليه الصحابة والتابعين، فلم يفتتنوا بمال أو جاه. ولم يصرفهم الزهد عن حياة المجتمع؛ لأنَّهم كانوا بطاقات روحية لا حصر لها، تعينهم على حياة في المجتمع فلم يكونوا عُبَّاداً للمال أو الجاه، أو الشهوات، ولذلك حققَّوا العدالة الاجتماعية في أرقى صورها.

6- أنَّ القيمة الزهدية من زهد الحسن البصري وأتباعه، تمثَّلت وأكدت أنَّ نفوس الصحابة -رضوان الله عليهم والتابعين الأوائل- كانت نفوس طيبة طاهرة ، ذات قلوب طيبة وراضية، وأرواحهم عالية راقية فدفعهم حبهم لله وطلب رضاه إلى العبادة والتنسُّك والزهد، فالقيم الروحية

الزهدية للزهد عندهم صادرة عن روح صافية متعلِّقة بالله.

7- إنَّ زهد الحسن البصري وما حواه من قيم كان وليداً، وكما ذكرنا ظروفاً سادت عصره، كان هذا وسيلة من الوسائل التي تدفع بالتقي العابد الزاهد إلى التفكر في القرآن، وتدبُّر آياته ومعانيه بصورة أدق، وهذا لا يكون إلا بمجاهدة النفس وتطهيرها بالعبادات والأذكار والاستغفار، فاخذوا من القرآن والسنة أساساً فكان بذلك الزهد منهجاً في حياتهم.

هوامش البحث ومصادره:

1- الشعراني: الطبقات الكبرى، ج1، بيروت، دار صادر،1980، ص26.

2- كامل مصطفى الشيبى: صفحات مكثَّفة من تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت، دار المناهل،1995، ط ،1 ص68.

3- الشعراني: الطبقات الكبرى ج1، مصدر سابق، ص23.

4- أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء،ج2، مصر، مطبعة السعادة، ص،131،132.

5- المرجع نفسه،63.

6- المرجع نفسه، ص66.

7- كامل مصطفى الشيبى: صفحات مكثَّفة من تاريخ التصوف الإسلامي، (مرجع سابق)، ص62. وأيضاً: أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء،ج2، (مصدر سابق)، ص،131،132.

8- المصدر نفسه، ج2، ص132،133.

9- المصدر نفسه،ج2، ص132،133.

10- المصدر نفسه،ج2، ص132،133.

11- المصدر نفسه،ج2، ص132،133.

12- مسند الإمام أحمد بن حنبل،ج1، بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ص367.

(*) اتى الرواة والمتحدثين.

13- زكى مبارك: التصوف الإسلامي، ج2، بيروت، دار الجيل، 1995، ط2، ص76.

14- الشعراني: الطبقات الكبرى ج1، مصدر سابق، ص26.

15- الطوسي: اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، وطه سرور، القاهرة، دار الكتب الحديثة،1960، ص194.

16- ابن الجوزي: صفة الصفوة،ج3، حلب، دار الوعي، ص156.

17- المصدر نفسه،ج3، ص58.

18- المصدر نفسه،ج3، ص58.
19- الذهبي: سيرة الإعلام ج4، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص575.
20- المصدر نفسه،ج4، ص574.
21- المناوي: الكواكب الذرية،ج1، مصر، الأزهرية للتراث، ص184.
22- المصدر نفسه،ج1، ص182.
23- المصدر نفسه،ج1، ص182.
24- الأصفهاني: حلية الأولياء،ج2، مصدر سابق، ص360،359،358.
25- أبو طالب المكي: قوت في معاملة المحبوب، بيروت، دار صادر 1970، ص195،194.
26- ابن الجو زى: صفة الصفوة،ج3، (مصدر سابق)، ص204.
27- الأصفهاني:حلية الاولياءج2، (مصدر سابق)، ص360،358.
28- أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، بيروت، دار صادر 1970، ص195،194.
29- ابن الجو زى: صفة الصفوة،ج3، (مصدر سابق)، ص204.
30- إبراهيم بسيونى: نشأة التصوف الإسلامي، القاهرة، مكتبة القاهرة،1980، ص107.
31- المناوئ:الكواكب الذريةج1، (مصدر سابق)، ص184.
32- الذهبي: سيرة الإعلام ،ج4، (مصدر سابق)، ص570.
33- المصدر نفسه، ج4، ص570.
34- عبد الرحمن بدوى: تاريخ التصوف الإسلامي، الكويت وكالة المطبوعات 1978، ط2 ص37.